



جَدَّتِي وَالْبُرْ

إعداد وتأليف: إيمان راشد فارس
رسومات: أماني العابد

جَدَّتِي وَالْبُئْر

رسم وتصميم وإخراج فني:
أمانى العابد

إعداد وتأليف:
إيمان راشد فارس





عنوان القصة: جدّتي والبحر

إصدار ضمن مشروع تعزيز الهوية الوطنية ٢٠٢٢

الفئة العمرية (٨-١٣) سنة

إعداد وتأليف: إيمان راشد فارس

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

الناشر: وزارة الثقافة، قطر

إدارة الإصدارات والترجمة

رسم وتصميم وإخراج فني: أماني العابد

تدقيق لغوي: أ. محمد عبداللطيف و أ.منى أبو صيام

إشراف عام للمشروع: شيخة راشد الكواري

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٥٦٠

الترقيم الدولي (ردمك): ٩٧٨٩٩٢٧١٣٥٥١٤

(جميع الحقوق محفوظة - لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر)

جَدَّتِي وَالْبَيْتُ

مضى على وجودي في منزل جدتي ثمانية أعوام، كنتُ أبلغ
الثالثة من العمر عندما قدمت إليها، لم أكن أعي ما يجري
حولي، كنت أهوى كل غريب ومبهم، وفي منزل جدتي كان
العالم بأسره جديدًا، ويشجعني على طرح الأسئلة والاستكشاف.



هنالك في الفناء توجد بئر قديمة قد تمت تغطيتها بألواح خشبية. لم يعد أحد يستخدمها منذ ما يناهز الأربعين عامًا؛ لأنَّ ماءها قد جفَّ ونضب، كما سبق وأن أخبرتني جدّتي. كانت هذه البئر، دائمًا، ما تثير فضولي، كنت أشعر بأن خلفها تكمن مغامرة ممتعة وأسرار غامضة.



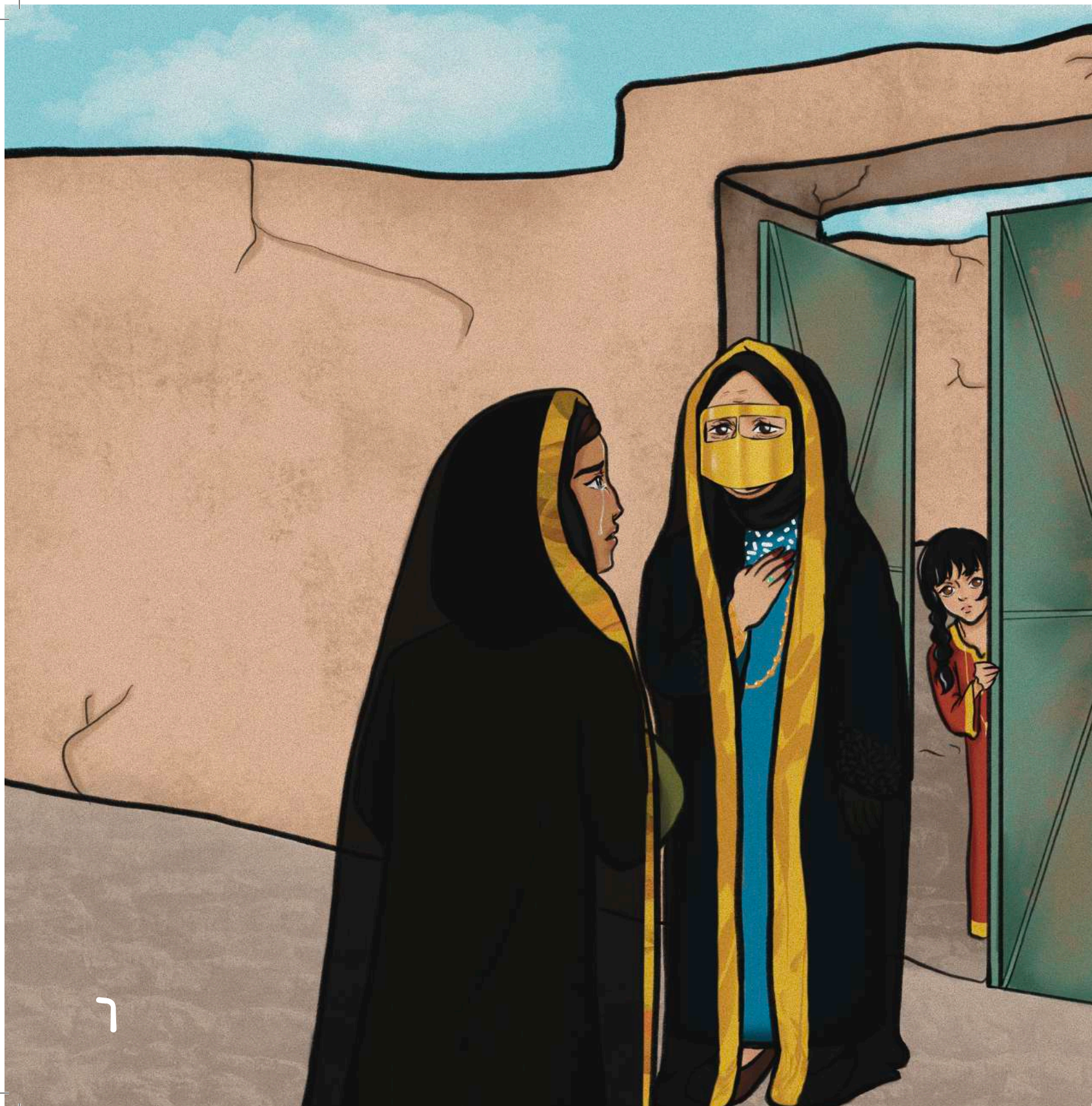
نَضَبَ : نزل وانخفض منسوبه

جَدَّتِي نورة احتوتني واحتضنتني منذ نعومة أظفاري،
كانت ولا تزال بحرًا من العطاء الذي لا أكتفي منه، لا يتغير
حبها، ولا يفتُرُ بمرور الوقت، امرأة متديّنة وحكيمة، كثيرًا ما
تَلجأُ لها نساء ورجال القرية في حلّ مشاكلهم، والنَّهْل من
آرائها السّديدة، كم شهدتُ على إصلاحها بين الناس، وعلى
حسن تدبيرها للأمور، وعلى إعطائها المواعظ والدروس
الدينية في وقتها المناسب وبطريقة محببة لطيفة.

نعومة أظفاري: مُنْذُ طُفُولَتِي
يفتُر: يضعف
المواعظ: النصائح



حتى إنني ما زلتُ أذكر عندما صحوْتُ ذات يوم على طرق باب المنزل،
كانت جارةٌ لنا تبلغُ من العمر عشرين عامًا، تبكي بحرقة شديدة، وتشتكي
إلى جدّتي ذات الخمسة وخمسين عامًا من خلاف حدثَ بينها وبين
شقيقها، كاد هذا الخلاف أن يتسبب بفرقة وقطع العلاقات العائلية
وصدع كبير بينهما، لكن جدّتي استطاعت بحنكتها وفطنتها أن تصلحَ
بينهما، فقد ذكّرتهما بأهمية صلة الرَّحم، وكيف أمرنا الله - عز وجل - بأن
نكون من أهل البرِّ والصّلة، وكيف يجب علينا أن نعفو عند المقدرة،
وذكّرتهما بالأجر العظيم لمن يبادرُ بالصّلح والعفو، لتعودَ المياه
إلى مجاريها، وتعود الروابط الأخوية بينهما كما كانت وأفضل حالًا.



كانت تهديهم نصائحها ومَشُوراتها بأسلوب جَذَابٍ محبوب للنفس، لا
ينفِرُ المرءُ منه، بل على العكس يرغب الناس - دائماً - في أن يعرفوا
من عذوبة كلماتها التي لا يرتوي منها السامعون مهما أخذوا منها،
دوماً كانت تخاطبني كامرأة شابة ناضجة على الرَّغم من أنني لم أكن
أتجاوز الحادية عشرة من عمري، وكنت - دائماً - ولله الحمد عند حسن
ظنّها بي، علّمتني القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، زرعتُ
في قلبي حبَّ الخير والعطاء، دوماً كانت تردد على مسامعي بأنني
مستشارتها المؤتمنة، وكان ذلك يبعثُ في قلبي الصَّغير السُّرور والبهجة.



ذات صباح وبينما كنّا نحتسي كوبين من الشاي في فناء
المنزل إذ بي أسمعُ صوتًا يشبه صوت هدير البحر يصدر من
ناحية البئر، التفت ناحية جدتي إذ بها تسمع كما أسمع، اتجهنا
إلى البئر لنكتشفَ أمر هذه الأصوات، فإذا بمياه تتدفق
منها، وتُزيج ألواح الخشب التي كانت تغطيها، تذوقتُ جدتي
الماء فوجدته عذبًا زلالًا.. أخذتُ أضحكُ مسرورة ومتعجبة
في آنٍ واحد وأنا أشرب منه إلى أن ارتويت، بعد بضع
دقائق عاد الماء إلى منسوبه الطبيعي وهذا واستكان.



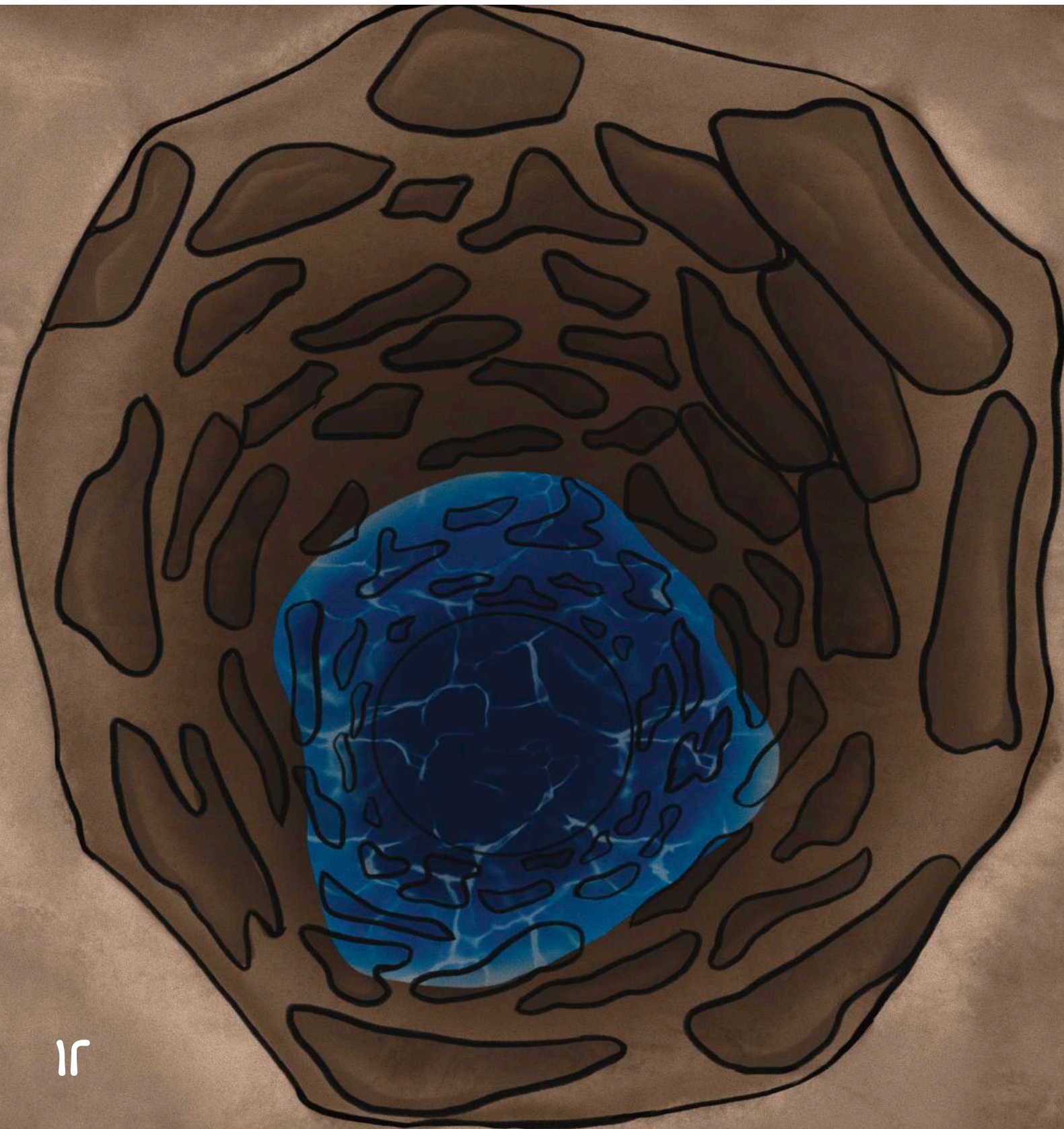
أخذتُ أحَدَق في جدّتي، وهي تنظر إلى البئر بوجه يشرق بابتسامة
رضا وقبول ثمّ مالت بوجهها نحوي، وهي تضحك وتقول :

- أعلم جيّدًا أن خلف تلك العينين الجميلتين ألف سؤال وسؤال.. هل
ترغبين في معرفة قصة هذه البئر التي طالما استرعت انتباهك؟!

فأومأت برأسي؛ أن نعم، أرغبُ وبشدة، أمسكتُ يدي بيدها الناعمة
المُخَصَّبة بالحناء، وطلبت مني أن أنظر إلى أعماق نقطة أستطيعُ
أن أراها في البئر، وأن أخبرها ماذا أرى، تعجبت وقلت لها:

- جدّتي، إنها بئر، فماذا عساه أن يوجد في داخلها سوى الماء الحلو؟!

كررت طلبها مرة أخرى وبصوتٍ أكثر صرامة، فعرفتُ بأنّها جادة.



أَلْقَيْتُ نَظْرَةَ خَاطِفَةٍ، فِي بَادئِ الْأَمْرِ، لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ
أَرَى سِوَى سَطْحِ الْمَاءِ يَتَحَرَّكُ بِخَفَةِ؛ لَكِنِّي عِنْدَمَا
أَمَعَنْتُ النَّظَرَ جَيِّدًا خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي أَرَى سَفِينَةً خَشَبِيَّةً
ضَخْمَةً بِأَشْرَعَةٍ عَمَلَاةٍ، تَحْمِلُ عَلَى مَتْنِهَا رِجَالًا يَرْتَدُونَ
مَلَابِسَ بَسِيطَةً كَبَسَاطَةِ حَيَاتِهِمْ، بِيضَاءَ كَبِيضٍ قُلُوبِهِمْ.



سألت جدتي: مَنْ يكون هؤلاء؟

فأجابتنني قائلة: بما أنك استطعت أن تلحظهم، فأنت قد غدت جاهزة لكي آخذك معي في رحلة إلى الماضي، فقد أصبحت تملكين من العلم والمعرفة ما يجعلك ترين ما لا يراه الآخرون، وتُنصتين إلى ما لا ينصتُ له الآخرون، فهيا معي يا عزيزتي في رحلة نتعلم فيها مَنْ هم هؤلاء الأبطال الصابرون المحتسبون؟، نرحل معهم في رحلاتهم للغوص عن اللؤلؤ والبحث عن كنوز الله سبحانه في بحاره وإعمار الأرض. انطلقتُ معها في رحلة وهمية بخيالي.. تقصّها علي بأسلوبها المنمق الذي يسلب لبّ العقول.



عادتُ بي جدّتي إلى الوراق كثيرًا إلى سنين مضت؛ حينما كان أبي شابًا يافعًا في السابعة عشرة من العمر. كانت رحلة الغوص العاشرة له، الاستعدادات تجري على قدم وساق، التحضير والتجهيز لدخول الرجال في رحلة غوص، السفن تصطفُ في البحر بشموخ وجمال أخاذ، تأسر الأبواب بأشرعتها الناصعة البيضاء، وكائناتها قطع من الغيوم تساقطت من السماء، الرجال يحملون صناديق المؤونة والمعدات التي يحتاجونها في رحلتهم الطويلة، النساء على شاطئ البحر كائنهن نخيل يقفن ممشوقات فارعات الطول يرفعن أكفهن بالدعاء والتضرع إلى الله - عز وجل - بأن يحفظ رجالهن، وأن يرزقهم بالرزق الحلال الوفير.



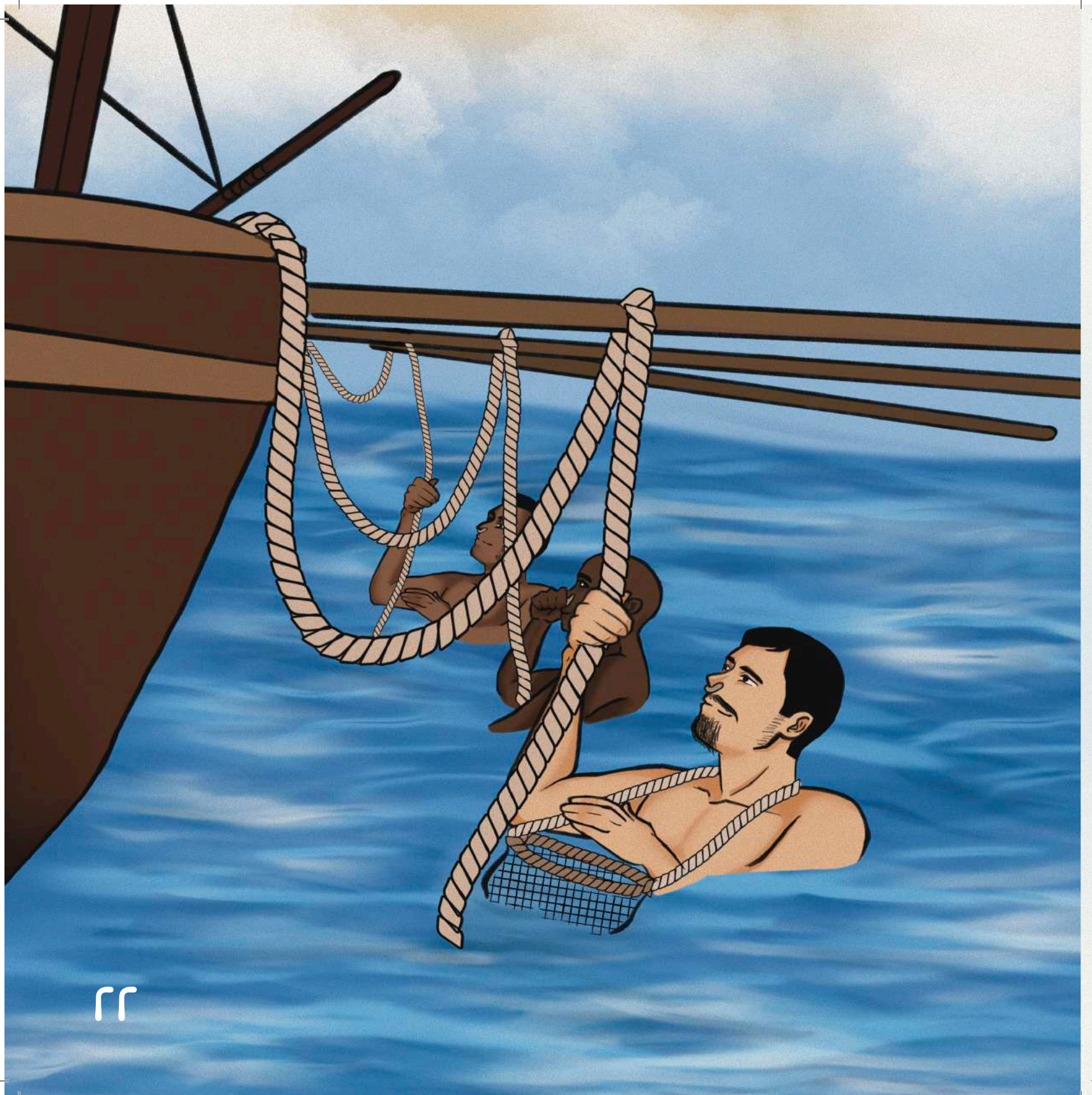
وحولهن الأطفال كزهور ندية تفتحت للتو، يلوحون للرجال الدّاهيين في رحلة الغوص،
ومعهم شمس الصيف تلوّجُ بأشعتها، انطلق الرّجال على بركة الله تعالى في رحلة قد
تستغرق أربعة أشهر بعيدًا عن أهاليهم ومنازلهم، في رحلة نحو المجهول تحت لهيب الشّمس
الحارقة، يشدّون حبال الأشرعة؛ لينطلقوا بقوة وعزيمة تلك الحبال المجدولة بعناية وحرص
والتي ذكّرتني بضفائر جدّتي المتدلية على كتفيها، وهي تتزيّن بأوراق المشموم العطرية.



كان جدِّي مبارك هو نوحذة السفينة (قأئدها) ، وكان
أبي على الرغم من حذائة سنه إلا أنَّه يجلس في
مقدمة السفينة ليحلَّ محلَّ جدِّي فيها، فقد كان
بمثابة ذراعاه اليُمنى، الجميع يتعاونون فيما بينهم
فما أن يسقط أحدهم من شذة الإنهاك والإعياء حتى
يلتفُّ البقية حوله يساعذونه إلى أن يعود إلى سابق
عهده، يتقاسمون شربة الماء.. رغيّف الخبز.. حبَّات التَّمر..
لُقيمات الطعام.. الهموم والمسرات، والنوحذة (جدِّي)
كان الأب الرحيم للجميع، يشجع هذا، ويشدُّ على يد ذاك.



يقفز الغواصون في الماء تباغًا كأنهم مسباح من الخرز
تنفرط حباته تباغًا، كل واحد منهم يحرص أن يعود
زميله معه بسلام إلى سطح الماء، وإن واجه أحدهم
مشكلة في قاع البحر هبَّ الجميع لمساعدته وإخراجه
سليمًا معافى، يصطادون المحار ليستخرجوا منه اللؤلؤ،
وكل واحد منهم يُمني نفسه بالعثور على الدّانه، رغم أن
الكثير من المحار يكون فارغًا؛ لكنَّ ابتسامة الرضا واليقين
لم تكن تفارق وجوههم المجهدة التي لسعتها أشعة
الشَّمس، فهم يعلمون بأنّ الرازق هو الله - عز وجل -
وبأنهم لابد عائدون بالخيرات إلى عوائلهم بإذن الله.



بينما هناك على الشاطئ تعجُّ الحياة في البيوت،
نسوة يتشاركن الصبر بانتظار عودة آبائهن، وإخوانهن،
وأزواجهن وأبنائهن، قلوبهن مشتاقة؛ لكنَّ العقول
تحتّم عليهن وتخبرهن بمدى حاجتهن للتجلّد والقوة؛
كي تمضي الأيام بيسر وسهولة، وتمضي بهنَّ سفينة
الحياة في الطريق القويم. كل نساء القرية أخوات
يتشاركن المسؤوليات وأعباء الحياة اليومية، وكأنَّ القرية
كلها أضحت عائلةً واحدةً.. قلباً واحداً.. وروحاً مشتركة.



حانت مَنِّي التفاتة ناحية جدّتي سألتها متعجّبة: جدّتي رأيت صغيرتك في كل مكان؟! تلتف بحذر حول الأشرطة؛ لكي تحرص على أن تكون على أهبة الاستعداد للانطلاق والإبحار ببسر وسلامة، رأيتها وهي تحتضن صغار القرية، وتجمعهم على مائدة واحدة يتشاركون اللهو والضحكات، ويتقاسمون الحلويات الشهية التي تعدّها الجدّات، كذلك رأيْتُ صفائرك وهي تكفكف دمع فتاة حزينة على فراق أبيها، وتمسح على رأس أخرى تشتاق لولدها، كنتَ بينهم جميعًا في كل مكان وفي كل وقت، أنتِ يا جدّتي تلك البئر التي لا ينضب ماء عطائها، عطاؤك اللامحدود بلا مقابل لكل من أراد أن يغترف من علمك وحكمتك وحنانك الذي لا ينضب، أنتِ البئر التي لا تبوح بالأسرار التي تُلقَى في قعرها، فلا يراها أحد، ولا يسمعُ منها شيئًا، أنتِ هي البئر التي طالما رغبتُ أن أعرفَ قصتها، أنتِ البئر التي ظلّ الكثيرون أنّ ماءها قد جفّ ونضب؛ لكنّها كانت ممتلئةً بالماء البارد العذب في انتظار من يحتاج إلى أن يغترف منه ليسقيه بكل طيبة نفس وحب.



التفتت نحوي تسألني: هل استطعتِ أن تعي وتفهمي قصتي يا حبيبتي
مريم؟.

أجبتها: نعم.. أليست السفينة هي الأب، سفينة المنزل بقوته وصبره
وجلده وانطلاقه بين أمواج الحياة وصعوباتها ليؤمن لعائلته قوت الغد،
أليست الأم هي تلك النخلة الصامدة.. الثابتة.. الشامخة في وجه صعوبات
الحياة بعزة وكرامة.. دائمة العطاء ودائمة الدعاء لأسرتها، والأطفال هم
زهور المنزل الرقيقة.. غراس الغد التي تحتاج إلى عناية واهتمام، وأن
تُسقى بالحب والعلم والدين، وذلك أبي على الرغم من حداثة سنّه إلا
أنّه استطاع باجتهاده وعمله الدؤوب أن يرتقي بنفسه إلى مصاف عالية؛
ليصبح مساعدًا لجدي (النوخدة)، وينال التميّز بأن يكون قائد الغد، فقد
أبان للجميع بأنّ صغر السنّ ليس عائقًا عن الوصول للقيمة إذا بذلنا
الأسباب، وتوكلنا على الله.



احتَضَنْتَنِي جَدَّتِي بِرَفَقٍ، ثُمَّ وَضَعَتْ كَفَّهَا عَلَى رَأْسِي، وَقَالَتْ لِي:

- بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا مَرْيَمُ، الْآنَ أَصْبَحْتَ خَلِيفَتِي، أَنْتِ الْجَدَّةُ الصَّغِيرَةُ
الْقَادِمَةُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لَقَدْ نَضَجَ هَذَا الْعَقْلُ، وَأَضْحَى يَتَدَفَّقُ
رُشْدًا وَحِكْمَةً، هِيََا بَنَا يَا صَغِيرَتِي نَعُودُ إِلَى يَوْمِنَا الْحَاضِرِ، نَسْقِيهِ
بِحِكْمَةٍ وَخَبْرَةِ الْمَاضِي لِنَمْتَزَجَ بِعُلُومِ الْحَاضِرِ، فَيَصْبِحُ الْمُسْتَقْبَلُ
أَفْضَلَ وَأَجْوَدَ لِلْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ.



